الغدير في الأدب العربي

سيدي حن

جمهورية مالي – غرب إفريقيا

منذ أن وجدت الحضارات وقامت الأمم والشعوب قامت معها آداب وفنون وأشكال تعبيرية وأنماط جمالية تعبر عن آمالها وآلامها وأفراحها وأتراحها وتؤرخ لنجاحاتها وإخفاقاتها وتدون آثارها وأخبارها وتخلد أيامها وذكرياتها.

ولقد كان للأمة الإنسانية النصيب الأكبر والحظ الأوفر فمنذ مجيء الإسلام تبنى أدبا رفيعا وفنا بديعا ونمطا أنيقا طبعه بخصائص مضمونية ومعنوية ظل بها يواكب حركة الدعوة ومسيرة الإسلام ينافح عنها ويطرح قضاياها ويخلد وقائعها وأحداثها في قوالب أدبية عتيقة تتلقاها الأجيال وترويها الأعقاب، وتُبقي تلك الوقائع والأحداث حية في ضمير الأمة ووجدانها بصورها الواقعية بأجلى أبعادها وأصدق معانيها وأرقى دلالاتها. من هذا المنطلق تبوء هذا الأدب الهادف البناء مكانة سامية ومرموقة في الإسلام لما له من خصائص ومميزات تعطيه القدرة على التأثير والتوجيه وتفجير العواطف النفسية والمشاعر والأحاسيس الإنسانية واستمالة القلوب والضمائر وترسيخ القيم والمبادئ وحفظ القضايا وإحياء الوقائع وتخليد الأحداث خصوصا تلك التي لا غنى للمسلم عن معرفتها والوقوف على حقيقتها. ومن أبرز الوقائع التي شكلت منعطفا هاما وخطيرا في تاريخ الإسلام ومسار الأمة ومستقبل سياسة الحكم للأجيال الصاعدة، وشغلت حيزا كبيرا ومساحة واسعة من اهتمام العلماء والمؤرخين والباحثين والأدباء الذين أبقوها قضية حية في ضمير الأمة متجذرة في أعماق وجدانها، وهاجة على طول التاريخ البشري، تطرح ذاتها بكل وجاهة وإلحاح على المسلمين بتعدد مذاهبهم واختلاف مشاربهم لما تحمله من دلالات عقائدية ترتبط بمنصب إلهي عظيم يمثل أهمية كبرى في الإسلام.

إنها واقعة الغدير التي أكمل الله فيها الدين وأتم فيها النعمة حيث أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله سلم أن يتوج فيها الإمام علي عليه السلام بتاج الخلافة والإمامة يقول الله تعالى (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

هناك دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى رد من تقدم من القوافل وحبس من تأخر منها كما ورد في المصادر التاريخية فصلى بالناس ثم قام خطيبا وأخذ بيد علي بن أبي طالب ليرفعها عاليا ويهتف في تلك الحشود التي ناهزت مائة ألف أو يزيدون قائلا: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه حيث دار ... ألا فليبلغ الشاهد الغائب) وبعد أدائه صلى الله عليه وآله وسلم

هذه الرسالة هبط الوحي بالآية الكريمة في قوله تعالى: (اليوم أكملت دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا).

فلم تكن هذه الواقعة بالحادثة العابرة في تاريخ الأمة الحضاري وإنما كانت في الصميم من تاريخ الرسالة المحمدية بل كانت الوجود المتجذر، والمنعطف الكبير، والواقعة العظيمة والحدث المتميز الذي زهت السماوات بنوره وأشرقت الأرضون من ضياء غرته فأسر القلوب وملك النفوس وهيج المشاعر وحرك العواطف وهز الأمة هزة مفعمة بالفرح والحبور واعدة بالخير والبشر والأمل امتزجت فيها عناصر الماضي بعناصر الحاضر لتتواصل مع المستقبل.

وكان الأدب وتحديدا الشعر الذي هو وسيلة الدعاية الفاعلة ومنبر الإعلام الناشط والمؤثر في ذلك الوقت يواكب هذه الحادثة ويسجلها ويتغنى بها في بيان مشرق وأسلوب جميل وقصائد عصماء، مشبوبة العاطفة، زاهية اللون، عذبة الرنة تعكس انفعال المسلم الذي شهد تلك الواقعة حيث نهض حسان بن ثابت شاعر الرسول الملهم في ذلك المحتشد الرهيب الحافل بمائة ألف أو يزيدون وأنشد أبياته الشهيرة التي كانت أول ما عرف من الشعر القصصي حيث يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالنبي مناديا
وقد جاءه جبريل عن أمر ربه بأنك معصوم فلا تك وانيا
وبلغهم ما أنزل الله ربهم إليك ولا تخس هناك الأعاديا
فقام به إذ ذاك رافع كفه بكف علي معلن الصوت عاليا
فقال فمن مولاكم ووليكم فقالوا ولم يبدوا هناك تعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ولن تجدن فينا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماما وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى عليا معاديا
فيا رب انصر ناصريه لنصرهم إمام هدى كالبدر يجلو الدياجيا

وهكذا تثبت هذه المقطوعة الشعرية التي تعتبر وثيقة تاريخية كبرى واقعة الغدير وأنها بيعة إلهية وعيد إسلامي ورمز للولاية بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعلي بن أبي طالب هو خليفة النبي والقائد الأعلى للمجتمع الإسلامي وللمسيرة الإسلامية في غياب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في مقطوعة شعرية للإمام علي عليه السلام يثبت فيها خلافته بالنص والتعيين من النبي صلى الله وآله وسلم حيث يقول علي عليه السلام في رسالة جوابية إلى معاوية:

محمد النبي أخي وحنوي وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحي ويمشي يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرا على ما كلن من فهمي وعلمي
فأوجب لي ولايته عليكم رسول الله يوم غدير خم
فويل ثم ويل ثم ويل لمن يلقى الإله غدا بظلمي

وهكذا انبرى الأدباء لحادثة الغدير يحيونها ويتغنون بمآثرها وينظمون القريض الطافح بالنفس الشيعي وبالولاء المطلق للإمام علي عليه السلام، تحس فيه حرارة العاطفة وصدق الإيمان وعمق الحب ورسوخ المعتقد فهذا قيس بن سعد الصحابي والفارس الشجاع والجندي الباسل يقف إلى جانب علي في محنته المريرة في صراعه المثير مع معاوية بن أبي سفيان، فينشد الشعر في واقعة الغدير قائلا:

وعلي إمامنا وإمام لسوانا أتى به التنزيل
يوم قال النبي من كنت مولا ه فهذا مولاه خطب جليل
إن ما قاله النبي علي الأمة حتم ما فيه قالٌ وقيل

وعلى الرغم من قساوة الظروف التي عصفت بالأمة الإسلامية بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومحاولة تزييف الحقائق وتحريف الواقع والتعتيم على واقعة الغدير وتجاهلها وكم الأفواه التي تريد ذكرها أو الحديث عنها، على الرغم من ذلك كله فقد بقيت حادثة الغدير حية في الأدب العربي حتى في العصر الأموي والعباسي تستحوذ على حيز كبير من نتاج الشعراء الذين ظلوا أوفياء لها متشبثين بمعانيها فها هو الكميث شاعر أهل البيت يقول في الغدير:

لدى الرحمن يصدع بالمثاني وكان له أبو حسن قريعا
حطوطا في مسرته ومولى إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبي على اختيار بما أعيا الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح دوح غدير خم أيان له الولاية لو أطيعا

وها هو العبدي ينشد في الغدير مقطعا من قصيدة طويلة تعد من روائع الشعر العربي في تلك الحقبة:

وكان عنها لهم في خم مزدجر لما رقى أحمد الهادي على قتب
وقال والناس من دون إليه ومن ثا ولديه ومن مصغ ومرتقب
قم يا علي فإني قد أمرت بأن أبلغ الناس والتبليغ أجد ربي
إني نصبتك عليا هاديا علما بعدي وإن عليا خير منتصب
فبايعوك وكل باسط يده إليك من فوق قلب عنك منقلب

وغير هؤلاء كثير من فطاحلة الشعر وجهابذة الأدب الذين خلدوا واقعة الغدير على مرّ العصور في أشعارهم الغزيرة ونتاجاتهم الثروة الوفيرة منهم أبو تمام، وأبو فراس الحمداني، وابن الرومي، وأبو العلاء المعري وغيرهم كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم واستعراض نماذج من شعرهم.

كما أن الغدير لم يبق حكرا على الأدب العربي في الشرق الإسلامي فحسب بل إن الأدب العربي في الشمال الأفريقي قد تعرض لواقعة الغدير وأشاد بها وذلك أن الفاطميين في مصر كانوا يعتزون بالغدير ويعتبرونه أهم الأعياد الإسلامية فيقيمون له الاحتفالات البهيجة ومراسم وتقاليد تتسم بكثير من الاهتمام ومظاهر البذخ، والتي كانت من دوافع ازدهار الأدب وموضوعا من موضوعاته حتى أن عمارة اليمني في قصيدته التي رثى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال:

وأول العام والعيدين كم لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين نصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شبه مثل العرائس في حلي وحلل

وقد نظم الشعراء الفاطميون واقعة الغدير في قصائدهم فجاءت مبثوثة في ثنايا شعرهم ومن ذلك قول تميم بن المعز لدين الله في رائيته الطافحة بالحب والولاء للإمام علي:

جادك الغيث من محلة دار وثوى فيك كل غار وسار

إلى أن يقول:

ثم يوم الغدير ما قد علمتم خصه دون سائر الحضّار

ويوجد العشرات من الشعراء الذين عاصروا العهد الفاطمي وتفيؤوا بظلاله النعيم ومدحوا الإمامة الفاطمية في قصائدهم ونظموا هذه الإثارة – عيد الغدير – في شعرهم ومنحوها حظا وافرا من اهتمامهم شأنهم شأن أي شاعر شيعي يعتبر الغدير قضيته المركزية ودليله القوي.

وهكذا ظل الأدب العربي على مر العصور وعاء يحفظ حادثة الغدير منذ يومها الأول وإلى يومنا هذا واستمر الشعراء ينسجون حولها الشعر وينظمون فيها القريض ولا تمر لها ذكرى دون أن تجيش المشاعر وتثور العواطف وتجود القرائح بما يحيي هذه الذكرى ويجدد عبقها ويعطيها حقها من الإشادة والتنويه.